قرأت العدد الماضي من "آداب"

الأبحاث

بقلم جلال السيد

***

لم تعد القضية العربية تحتمل الجدل والنقاش ، ولم تعد القضية الفلسطينية تنتظر دورها في جدول هيئة الامم المتحدة أو تحت رحمة المحاورة والمزايدات بها ، وتهاوت كل الحلول السلمية أو الاستسلامية تحت ضربات الثوار الفلسطينيين ، الذين رسموا طريقا واحدا هو الكفاح المسلح ، وشعارهم النصر أو الشهادة ، وحددت دماء الشهداء الطريق ، والمسئولية امام الشعب العربي ، فالقضية الفلسطينية جزء لا يتجزأ من القضية العربية . واذا كان الشعب الفلسطيني ـ اليوم ـ طليعة الشعب العربي في كفاحه ضد الاستعمار والصهيونية من اجل اعادة فلسطين عربية . فالشعب العربي وجيوشه النظامية لهما دور أساسي في الالتحام مع الثورة الفلسطينية ، واذا كان العدو الصهيوني قد اغتصب جزءا من الوطن العربي هو فلسطين ، فقد امتدت اطماعه الى اجزاء اخرى من الوطن العربي ، وما يزال يخطط من اجل المزيد ، وهنا تتضح ابعاد الصراع الدائر ، ليس فقط من اجل تحرير الاراضي التي احتلت بعد عدوان ٥ يونيو ـ وان كانت محور الجدل ، ويعتبرها البعض المهمة العاجلة ـ ولكن نرى ان هذا مظهر من مظاهر العدوان والتي تكررت منذ وجود العدوان الصهيوني على ارض فلسطين العربية، وهنا لا بد أن تكون خطة الشعب العربي هو القضاء على مصدر العدوان نفسه ـ مهما كانت التضحيات ومهما طال الزمن ـ وهذا يعني استخدام كل تكتيك يخدم هذه الفكرة ، ويلتقي ـ مدعما ـ الثورة الفلسطينية .

وقد تشرئب بعض الاعناق في انتظار ما تسفر عنه اجتماعات الدول الكبرى . ومن البداية نقول أن مصير الشعب العربي نرفض أن يتقرر الا على الارض العربية وبفكر وعقل عربي ، فنحن نرفض أن نكون ميدانا للصراع الدولي ، او الحرب الباردة او مساومات أو تنازلات قد يفرضها الواقع الدولي والظروف العالمية ، ونرفض ان تتحول قضيتنا الى المناطق التي عرفت بما يسمى بالمشاكل الدولية ، وتضاف مشكلة الى المشاكل المتعلقة في العالم ، يجتمع الكبار كلما ارادوا المفاوضات والنقاش حولها ، ونرى ان أي اجتماع للدول الكبرى ، أو أي مشروع لا تكون نقاطه الاساسية حق الشعب الفلسطيني في وطنه ، مضيعة للوقت ، ومحكوم عليه بالفشل مهما التقت جميع التيارات والقوى الدولية لتنفيذه .

حقيقة قد هزمنا في حرب يونيو ، هزمنا في حرب لم نخضها بعد، ودب اليأس والشك في نفوس البعض ، ولكن الجماهير العربية في كل مكان رفضت الهزيمة ، ومنطق اليأس والتسليم ، وكانت مبادرتها في كل مكان ، وكان رصاص الثوار الفلسطينيين المشعل المضيء للتائهين في ظلام الهزيمة ، والتعبير الصادق لروح الثورة العربية ، التي تعرف كيف تدافع عن أرضها وتراثها وحضارتها . ونحن لا نسطر جملا انشائية في الحماسة ، ولكن نتعلم من الثوار الفلسطينيين ، ومن الثوار على ضفاف القناة ، الذين ذكرونا بمنطق التاريخ ، ومنطق الشعوب والذي ساهمنا فيه نحن العرب خلال مراحل التاريخ وعلى مر العصور ، في مواجهتنا لكل غاز ومستعمر ، وفي كفاحنا من أجل استقلالنا وحريتنا ، وكان استشهاد الفريق البطل عبد المنعم رياض علامة على الطريق ، الذي نسي انه رئيس اركان حرب القوات المسلحة المصرية، وتذكر انه ابن من أبناء الشعب العربي الثائر ، ولذلك يجب أن يكون في المقدمة ، في مواجهة العدو ، نسي ما تعلمه في الكليات العسكرية ، ولم يتذكر سوى انه ثائر عربي يدافع عن ارضه وكرامته ، ووضع باستشهاده قانونا جديدا امام القوات العسكرية التي تدافع عن ارضها ، أن القائد الذي يريد النصر ، عليه ان يكون في مقدمة جنوده ، وان يكون المثال والقدوة ، قانون جديد وضعه استشهاد عبد المنعم رياض أمام الكليات العسكرية ليعيدوا النظر في موقع القائد ، ولم تكن الجماهير العربية بعيدة عن احاسيسه وانفعالاته بل احتضنته شهيدا بطلا ، ثائرا ، وكان استفتاء شعبيا لاختياره الحر ، وكان دلالة شعبية من كل قائد وجندي يسلك طريقه ، طريق الجماهير المصممة على تحرير ارضها ، مهما كان الثمن .

وتحت عنوان « شهادة جديدة » كتب الدكتور سهيل ادريس افتتاحية العدد الماضي ، حول استشهاد عبد المنعم رياض ، وفايز جراد : « ذلك ان هذا الاستشهاد يكرس الان التحاما حقيقيا طالما افتقدته الامة العربية بين قاعدتيها : القيادة والشعب ، ... ان روح التشكيك والانهزامية تندحر ابعد اندحار لدى مواجهة هذا الواقع : أن يموت القائد الى جانب الجندي ، بل قبله ، بل حماية له أحيانا ، ولن يبقى بعد ذلك امام الجندي ، الا ان يقتحم الموت قبل القائد ، بل حماية له ، وهذا التواصل في التضحية هو سر البطولات والانتصارات ، وهو الذي يتعالى على الهزيمة والانهزامية ، ان استشهاد عبد المنعم رياض وفايز جراد ، شهادة جديدة على ان الانسان العربي لا يستطيع الا ان يحيا ، لانه يعرف ان يموت » . ولنتصفح ابحاث العدد : وجميعها بلا استثناء حول القضية العربية والثورة الفلسطينية والمقاومة سواء قربت أو بعدت ولكنها محور هذه الابحاث ، واذا تساءل البعض عن علاقة « حوار فلسفي مع الدكتور زكي نجيب محمود » بهذا الموضوع المثار ، نقول قد يكون بعيدا ، ولكن بنظرة متأنية نرى ان مناقشة الافكار والفلسفات التي تعوق حركتنا ، هي تخدم بلا شك ، وان كانت لا تحمل من قريب أو بعيد مناقشة القضية ذاتها ، ولكن وضوح الفكر والفلسفات ، وكشف السلبي منها « هو سلاح للقضية ومن اسلحة مواجهتنا .

الى أين المصير ؟

واهم بحث في العدد الماضي ، ما كتبه الدكتور اسماعيل صبري عبد الله تحت عنوان : « الى اين المصير ؟ » مع تقديرنا لهذا المقال ، الا اننا نختلف قليلا مع الدكتور اسماعيل في بعض النقاط ، التي أثارها والتي تجاهلها ، ومعه تماما في معظم ما جاء في المقال من أفكار .

حدد الدكتور اسماعيل ابعاد الثورة العربية بثلاثة ابعاد : التحرري ، التقدمي ، والوحدوي ، والتي أحرزت نجاحات مؤكدة ، وعزا تعثر الثورة في مواقع كثيرة لاسباب متعددة في مقدمتها ، تفرق القوى الثورية والتقدمية والصراع العنيف بينهما ، وتحدث عن ردود الفعل بالنسبة لهزيمة يونيو ١٩٦٧ فحدد رد الفعل المباشر والتلقائي للجماهير العربية التي رفضت الهزيمة وصممت في وجه العدوان وأصرت على النضال حتى النصر ، ثم حدد موقف ما اسماهم بالواقعيين، والثوريين وواضح انه لا يوافقهما ـ مع اختلافهما تماما ـ وأحالنا الى « التحليل العلمي » على البارد « الذي هو وحده يهدي الى سبيل النصر » . واذا كان التحليل العلمي يساعد على اتخاذ الموقف السليم،

فليس هو الموقف، فالمعركة دائرة اليوم والشهداء الفلسطينيون يتزايدون يوما بعد يوم ، والقوات المسلحة المرابطة على طول الجبهات تشتبك كل يوم ـ تقريبا ـ ، كما ان « التحليل العلمي المنشود من اصعب الامور » كما يقول الدكتور ، فكيف يكون الموقف على ضوء ما عرضه من ردود فعل اثر العدوان ، لم يدلنا الدكتور اسماعيل على هذا الموقف !

وتحدث الدكتور اسماعيل عن النظرة الجزئية والتي تهمل بقية الحقائق المعقدة وأكثرها فجاجة هي النظرة العنصرية ، والتي تستند الى ما يسمى « بروتوكولات حكماء صهيون » وتستمد الحجج من مستنقع النازية ، ونحن معه في هذا ، وقد عالج هذه النقطة بشكل جيد وعلى ممر العصور ، على ضوء ديننا الاسلامي وتاريخنا العربي وقيم حضارتنا العربية التي قامت وازدهرت تحت شعار « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » وهذه النظرة ما زالت رائجة لدى البعض ، وللاسف الشديد نجد كتبا في الاسواق العربية تقوم فقط على هذه النظرة العنصرية ، والتي نرفضها .

ويرى الدكتور « ان المستوطن الاوروبي في الجزائر كان من الناحية القانونية فرنسيا يعيش في الجزائر . اما المستوطن الاسرائيلي فليس له جنسية اخرى ، وبالتالي عليهم ان يستميتوا من اجل البقاء ، ومن ناحية اخرى ـ قدم عدد كبير من هؤلاء المستوطنين من البلاد العربية ـ وليس خافيا ان السياسة الخاطئة التي عمدت اليها بعض الحكومات العربية في تشجيع اليهود على مغادرتها نهائيا قد لعبت دورا حاسما في الدعم البشري لاسرائيل ، ففي الخمسينات كانت موجة الفرار من أوربا قد انحسرت بعد انهيار النازية ، واستقرار الاوضاع في شرقي القارة . ولولا يهود اليمن ويهود العراق ثم يهود المغرب لما زاد عدد المهاجرين الى اسرائيل على النحو الذي تم به » .

ولا شك ان هناك فرقا بين المستوطنين في الجزائر ، والمستوطنين في فلسطين المحتلة ، ولكن القول بأن المستوطن الاسرائيلي ليس له جنسية اخرى ، فنتساءل من أي أرض أتوا ؟ والا كان هذا معناه أن المستوطنين بفلسطين المحتلة لم يعرفوا أرض غير هذه الارض ولم يعرفوا جنسية سوى الجنسية الاسرائيلية ، وهذا غير صحيح ، فكل مهاجر نزح الى فلسطين المحتلة كان يحمل جنسية ، ومعظم الدول لا تسقط الجنسية عن رعاياها بمجرد أن يحصل على جنسية اخرى ، بل تضع لذلك شروطا ومدة طويلة من الزمن ، حتى تسقط جنسيتها عنه ، والدليل على ذلك الهجرة من فلسطين المحتلة سنويا ، فالى أين يذهبون ؟ ومتى كانت لهم مشكلة في أية دولة منعتهم من الذهاب اليها والحصول على جنسيتها ، رغم ولائهم المزدوج للصهيونية وللدولة التي يعيشون فيها .

اما الجزء الاخر الخاص بالهجرة فنحن لا نوافق الدكتور ، فنحن معه على انه كان هناك بعض الاخطاء الصغيرة وقعت فيها بعض الحكومات العربية ، ولكن ذلك لم يكن الدور الحاسم في الدعم البشري لاسرائيل، بأي حال من الاحوال ، ونتساءل هل انتظر اليهود في الوطن العربي لكي تشجعهم الحكومات العربية على مغادرة البلاد ؟ أما الجزء القليل الذي شجعته الحكومات العربية فقد كان يمثل عبئا على أمنها ونظامها ومعظمهم كان ولاؤه للصهيونية . ولا أقول جميعهم ، حتى لا أقع في خطأ التعميم ، وربما ما حدث في بولندة في الشهور القليلة الماضية من عملية تهجير شاملة للصهيونيين واليهود ـ رغم خطئه ـ يبرر بعض الاخطاء التي وقعت فيها بعض الحكومات العربية .

ويقول الدكتور « ففي الخمسينات كانت موجة الفرار من اوربا قد انحسرت بعد انهيار النازية واستقرار الاوضاع في شرقي القارة ولولا يهود اليمن ويهود العراق ثم يهود المغرب لما زاد عدد المهاجرين الى اسرائيل على النحو الذي تم به » . وكأن الدكتور بهذا القول يذكرني بقول البعض من ان الفلسطينيين باعوا اراضيهم للصهيونيين .

واذكر الدكتور انه بعد الحرب وبعد انهيار النازية واستقرار الاوضاع في شرقي اوربا ، كان معظم الهجرات من شرقي القارة ، وكانت الاسلحة ايضا من شرقي القارة ، فقد وصل متوسط عدد المهاجرين اليهود في الفترة من ١٩٤٨ ـ ١٩٥١ حوالي ١٩٠ ألف معظمهم من شرقي القارة الاوروبية ، وكانوا يمثلون ٢٠ بالمئة من عدد السكان اليهود في فلسطين المحتلة في تلك الفترة ، اما بعد ذلك ومنذ عام ١٩٥٠ فقد اصبح المعدل السنوي للهجرة ما يقرب من ٢و٢ بالمئة من عدد السكان فماذا اضاف يهود العراق واليمن والمغرب ، بل اكثر من هذا ، أن هناك هجرة من اسرائيل الى الخارج بمعدل سنوي قدره من ٨ ـ ٩ الاف ، وصل هذا الرقم الى اعلى مستواه في الفترة من ٥١ ـ ١٩٥٣ حيث بلغ ١٠ الاف من ١٩٥١ ، ١٤ ألفا في ١٩٥٢ ، ١٣ الفا في ١٩٥٣، وهي فترة الازمة الاقتصادية التي واجهتها اسرائيل ، وفي جميع الاحوال شكل يهود اوربا المصدر الاكبر والاساسي للمهاجرين . (راجع سكان اسرائيل ـ تحليل وتنبؤات ، احمد حجاج ـ دراسات فلسطينية .).

المخطط الصهيوني

وقد عرض الدكتور اسماعيل للمخطط الصهيوني : ابعاده ووسائله، عرضا جيدا ، سواء من ناحية ظروف نشأتها ، أو ايدلوإوجيتها . أو هدفها في السيطرة الاقتصادية على الشرق العربي ، الا انه جاء في هذا الجزء خطأين تاريخيين :

الاول : « بل ان هرتزل زار مصر سنة ١٩٠٤ ... » والمعروف انه زارها ١٩٠٣ .

الثاني : « وقد حدد هرتزل الامور بأوجز عبارة ، حين كتب عام ١٩٠٨ يقول « ان دولة يهودية في فلسطين أو سوريا ستكون امتدادا للحضارة الغربية وحصنا ضد الهمجية الشرقية » .

وهكذا تحدد الطابع المزدوج لدولة اسرائيل قبل انشائها بأربعين عاما » .

وقد اكد الدكتور اسماعيل عام ١٩٠٨ مرتين ، في بداية الجملة وفي نهايتها ، ومن المعروف ايضا أن هرتزل مات في يوليو عام ١٩٠٤.

ولنعد لنناقش الافكار .

يقول الدكتور : « ولكن محاربة الصهيونية العالمية لاندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها من جهة وتجدد الاضطهاد العنصري على يد النازية من جهة اخرى ، اعادت طرح المشكلة اليهودية برمتها وبأعنف صورها على الضمير الاوروبي ، ومن ثم أصبح عدد كبير من الناس الشرفاء يعطفون على رغبة اليهود في ان يكون لهم موطن يلجأ اليه من يحس منهم بأنه لا يستطيع الاندماج في الوطن الذي يعيش فيه » .

ونسأل الدكتور أي شرفاء هؤلاء ؟ واين هذا الموطن ؟ وما رأي الشرفاء في أصحاب الموطن الشرعيين ؟

وقد كنت أود أن يحدد الدكتور ـ في هذا المجال ـ مسئولية الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي ، ومسئولية ما يسمى باليسار الاوروبي ، في الجريمة التي تمت على ارض فلسطين ، والمهزلة التي شارك فيها الجميع تحت منبر هيئة الامم المتحدة ، بل اكثر من هذا كيف شارك اليسار الغربي بموقفه الخاطيء من قضية فلسطين على طعم كفاح الشعب الفلسطيني وقضيته ، ونحن هنا لا ننطلق من منطلق عدائي ، بل نؤمن ان سندنا في معركتنا مع الاستعمار واسرائيل ، هي الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي والذي نقدر له مواقفه ومساعداته ، ولكن الذي يعنينا هو ما يحدث الان ـ دون الرجوع الى الماضي وأخطائه ـ الموقف من الثورة الفلسطينية المسلحة ، شعب يكافح من اجل تحرير وطنه ، لقد أسقط الدكتور موقف الدول الاشتراكية والتي هي مطالبة اليوم باتخاذ موقف حاسم من اسرائيل والصهيونية نظريا وعمليا ، وهنا لا يكفي ان نرجع الى ما كتبه ماركس ولينين وستالين عن الصهيونية ، فما حدث في الواقع العملي كان ضد هذه الكتابات النظرية ، ولذا نقول نظريا وعلميا ، حتى نستطيع أن نفهم موقف الدول الاشتراكية من قضية تحرير فلسطين .

اما النقطة الاخيرة والتي كانت في ذهني منذ بداية مناقشة النقاط، فهي موقف الشعب الفلسطيني الذي أعلن ثورته ، والتي هي امتداد

لكفاحه منذ نصف قرن تقريبا ، وكنت اود ان يتسع الكلام في هذا البحث المطول عن القضية الفلسطينية والثورة الفلسطينية ، حيث لم أجد سوى فقرة عن « دور شعب فلسطين ، في النضال من اجل حقه المشروع في وطن مستقل » في الوقت الذي يتحمل فيه العبء الاكبر من الموقف ، وعليه ـ ايضا ـ يتوقف تحقيق الاستراتيجية فمفتاح الثورة العربية ـ اليوم وغدا ـ القضية الفلسطينية والموقف من الثورة الفلسطينية المسلحة ، وأي كلام عن التقدمية أو الثورية أو اليسارية لا يقاس الا من خلال الموقف من هذه الثورة .

ومع كل ملاحظاتي على بحث الدكتور اسماعيل صبري ، فلا شك انه بحث هام ، عالج فيه القضية بمقدرة وذكاء شديدين .

اما البحث الثاني فكتبه الاستاذ عبد القادر ياسين عن « استراتيجية الفداء » ولم أفهم معنى العنوان الا اذا كان قصده استراتيجية العمل الفدائي ، فالفداء بالمعنى المجرد موقف ذاتي ، يختلف من شخص لاخر ، وتختلف النظرة الى القضية التي يفتديها الانسان ، من شخص لاخر ، وبالتالي كيف يكون لهذا الموقف استراتيجية، الا من خلال عمل جماعي ، تخضع لشروط وتنظيم وبالتالي تكون لها استراتيجية ، وقد يختلف كل عمل فدائي عن الاخر ، طبقا لظروفه وقضيته وبالتالي تختلف كل استراتيجية عن الاخرى ، وقد تتبع الاستاذ عبد القادر ياسين العمل والموقف الفدائي في بعض مراحل التاريخ الانساني واعطى الامثلة ، وخاصة بالنسبة لتاريخنا الاسلامي .

وعلى ما أعتقد فقد خلط بين الفداء والشجاعة والحماسة . فمثلا أتى بأحد أبيات المتنبي وغيره على انها تحض على الفداء ، منها :ـ

واذا لم يكن من الموت بد فمن العجز ان تعيش جبانا

وقول فطري بن الفجاءة :

وما للمرة خير في حياة اذا ما عدن سقط المتاع

وقول ابو بكر « أحرص على الموت توهب لك الحياة » .

هذه الامثلة لا أعتقد ان لها علاقة بالفداء ولكنها تندرج تحت باب الشجاعة والحماسة . اما خلاف ذلك ، فنحن قد استمتعنا بالمقاطع التي اوردها من الشعر الفلسطيني ، وكنا نود لو انه اعطانا تفصيلات اكثر حول البنود الستة التي حددها في نهاية المقال ، لزيادة ردود فاعلية العمل الفدائي الفلسطيني .

وفي دراسة جادة مخلصة كتب الاستاذ محمود عبد العظيم عن « الموقف الايديولوجي في شعر معين بسيسو » وهو متحمس باخلاص لشعر الشاعر الكبير معين بسيسو ، ونحن معه في هذا ، فكثيرا ما هزتنا قصائد معين وتأثر الكثيرون به وقد تتبع بجهود ووعي مراحل الشاعر كما حددها . واعطى النماذج التي تؤكد وجهة نظره ، واذا كنا نتفق مع الصديق محمود عبد العظيم على الاعجاب بشعر معين ، فاني اختلف قليلا معه في الثلاث مراحل التي صدرها : المد الانفعالي والجزر، والمد الواقعي ، لا لان شاعرنا لم يعرف المراحل ولكن لم استطع ان اهتدي الى معنى هذه التعبيرات الثلاث ، فأرى ان الشاعر ـ ما دام يعبر عن تجربته وموقفه باخلاص ، فلا يعنيني الانطباع السريع عن قصائده في اي مرحلة ، فربما كانت قصيدة قد يراها البعض يائسة ومع ذلك فهي تعبر عن موقف بعيد كل البعد عن اليأس ، ربما الذي طرأ على شعر معين هو فنيته ، وجودته المستمرة في صياغة افكاره ، وربما تكون هذه المراحل ، اما المد والجزر كما نعرفهما في السياسة فمن الصعب تطبيقها على الشعر .

ولسنا مع الصديق محمود في ان « المفكر او الفنان او المثقف المبدع هو معلم الجماهير وملهمها من خلال ثقافته الثورية .. » فالعكس هو الصحيح ، فالجماهير هي معلمة المفكر والفنان والزعيم السياسي ، وكلما ارتبط هؤلاء بقضية الجماهير وواقعهم كان تأثيره في هذه الجماهير يعطي ويأخذ ، ولا يكون له موقفا ذاتيا متفردا به ، وبهذا المعنى والاستمرار فيه كتب .. الى ان مدى فهم الشاعر معين بسيسو هذه المهمة للادب والمساهمة في اعادة الوجه العربي لفلسطين ؟ هل كان مجرد ترمومتر يسجل حرارة الاحداث ؟ ام كان صاحب افق رحب يساهم في تغيير الاحداث ؟ »

ولنعد ثانية لتأكيد دور الجماهير ، فهي القادرة وحدها على تغيير الاحداث ، وليس الافراد ، حتى ولو كانوا شعراء ، وعندما يساهمون في تغيير الاحداث فلانهم يذوبون بين جماهير شعبهم ، واظن ان هذا ما ينطبق على شاعرنا معين بسيسو .

واذا كان « حوار فلسفي مع الدكتور زكي نجيب محمود » للاستاذ احمد ماضي ، كما سبق ان قلت ربما يرى البعض انه بعيد عن القضية الراهنة التي نتناولها ، سواء فيما كتبه الدكتور اسماعيل صبري ، أو ما كتبه عبد القادر ياسين او ما كتبه محمود عبد العظيم ، فنحن نرى قربها من القضية ، فاذا ادركنا ان معركتنا مع الاستعمار والصهيونية هي معركة طويلة تحتاج الى كل الاسلحة ، فلا شك ان السلاح الفكري عامل هام في الموقف ، كشفت الافكار والفلسفات التي تحول دون انتصارنا مهما تكونت واخذت من اشكال ، ونحن لا نحجر على احد في ان يبني ما يريد من فلسفات او فكر ، ولكن المعركة تكون بين كشف هذا الفكر ، اذا ما قدم للجماهير والطلبة في مدرجات الجامعات ، والمعركة مع الدكتور زكي نجيب محمود ، معركة مستمرة منذ اكثر من عشر سنوات . شارك فيها الاستاذ احمد ماضي بدراسته الجادة عن الوضعية المنطقية ، متتبعا افكار الدكتور في كتبه المختلفة ، معارضا لها ، مشيرا الى ان « الفلسفة تزود الناس وبخاصة العلماء بنظرة عامة الى الكون والمجتمع والانسان لا غنى عنها في أي ميدان من الميادين . ان الفلسفة تمثل منهجا علميا يهتدي به في دراسة ظواهر الطبيعة والمجتمع وعمليا في الفكر البشري ، وهي لا يمكن ان تؤدي « دورا توضيحيا » فقط لما يقره « العلم والعلماء » .

وستكون هذه المعارك الفكرية وغيرها محور المناقشات بين المفكرين في المراحل القادمة ، لانها ليست منعزلة عن معركتنا الدائرة بين الاستعمار والصهيونية .

واخيرا فلجميع كتاب العدد الماضي تقديري لما طرحوه وما ساهموا به في مناقشات جادة حول القضية العربية والقضية الفلسطينية ، واعتقد ان اي خلاف هو اثراء للفكرة نفسها ومشاركة متواضعة في طريقنا الذي رسمته الجماهير ، الطريق الى النصر ، بالكفاح المسلح ، والمواجهة الثورية في كل الجبهات وفي جميع المجالات ، والتي تمارسه اليوم الطلائع الثورية للشعب العربي على ارض فلسطين ، وعلى الجبهات العربية الاخرى المواجهة للعدو .

القاهرة **جلال السيد**

المكتبة الوطنية وفروعها

البحرين ـ الخليج العربي

وكلاء توزيع كتب ومجلات وادوات مدرسية
اطلبوا منها

مجلة « الآداب » ومنشورات « دار الآداب »

القصائد

بقلم شوقي خميس

***

لا يوجد الآن من يتمسك كثيرا بمفهوم الشعر التقليدي باعتباره مرآة عاكسة لواقع الحياة على نحو مباشر ، وخادم مخلص للافكار او الطبقة او الموقف ، بينما تتوافق آراء النقاد المعاصرين على اختلاف مذاهبهم الفنية ودوافعهم على المفهوم الجديد للشعر كخلق وابداع وفعل يعيد صياغة الواقع والحلم الانساني ويمثل اضافة للحياة وتوسيعا لحدودها .

ولكن شاعر اليوم المحاصر بهجوم متواصل رهيب من اجهزة الاعلام الحديث والمعرض باستمرار لضغوط التفوق المادي ، والاختلال ، والعناصر المعادية للانسان ، والدافعة به الى الاغتراب والعزلة عن عالم هو من صنع يديه ، قد يرى في عملية الخلق الهادىء العظيم موقفا مستحيلا او لا اخلاقيا ! اذ كيف له ان يتغنى مثلا بانتصارات الانسان واحلام السعادة المقبلة بينما رائحة الجثث البشرية وجرائم الاستعمار في عصر تشابك المصير والتكنولوجيا تتصاعد لتزكم الانوف ؟! يكفي ان يدير الشاعر قرص المذياع او يلقي نظرة واحدة على مانشتات جريدة يومية لكي يشعر بعبث الكتابة ويتوقف عن الغناء . فالخبر السياسي ، غارة ، او عمل فدائي ، او بيان عسكري ... الخ قد يكون اقوى بما لا يقاس في تأثيره على وجدان الشاعر والقارىء من ذلك الشعر الذي يتغنى بانتصاراتنا ، وليس امام الشاعر الا ان يكف عن الغناء او يكتشف طريقا جديدا يلائم طبيعة الحياة المعاصرة .

ولقد اكتشف الشعراء الجدد طريقين جديدين ، احدهما طريق الشعر السياسي والثاني طريق الشعر الشامل . ولا نزعم ان أيا من هذين الطريقين جديد تماما ، فان جذور الشعر السياسي تمد الى كل الشعراء القدامى الذين واجهوا بأشعارهم تفسخا اجتماعيا أو اختلالا حضاريا ، كما ان الشعر الشامل قد وجد صورته الاولى العظيمة في اعمال الشعراء الكلاسيكيين الكبار وغيرهم . ونحن لا نزعم ايضا ان ايا من الطريقين الجديدين قد تم انجازه على نحو نهائي فان الاعمال الشعرية العظيمة هي التي تحدد وحدها ابعاد كل من الاتجاهين الجديدين وان الموقف النضالي المحتدم بين الشاعر المعاصر وواقع الحياة هو الميزة المشتركة في الاتجاهين معا .

اما الشاعر السياسي المعاصر فقد واجه الحياة الجديدة بنفس اسلحتها التي لم تعرفها الانسانية من قبل ، لقد واجه الخبر بالخبر ، والرقم بالرقم ، والتاريخ بالتاريخ ، والتقرير بالتقرير ، والصورة بالصورة ، رافضا مستنكرا متحديا لاعنا مصمما كاشفا عن الزيف والخداع ، مضحيا الى حد كبير بجمال الصورة التقليدي ورشاقة التعبير وصقله ، فعل ذلك اريش فريد في ديوانه (وفيتنام ايضا) وفي قصيدته المنشورة بالعدد الماضي من الآداب ، ويفعل ذلك شعراؤنا العرب منذ هزيمة الخامس من حزيران على نحو لم يسبق له مثيل مرتفعين بالقصيدة السياسية العربية الى ذرى جديدة تشهد بنضالية الانسان ، وتقدم مجلة الآداب عشر قصائد من الشعر السياسي لعشرة من شعرائنا سنناقش بالتفصيل ما قدمه كل منهم على حدة .

واما عن شعر الشمول الانساني فقد واجه الحياة الجديدة التي تدفع بالانسان الى الاغتراب وتفقده مقدرته على العطاء والابداع بالوقوف الى جانب هذا الانسان كاشفا في الاسطورة والتاريخ والواقع عن مكانه الحقيقي وكل ما يعيد له ثقته بنفسه الممزقة وقدرته على الوقوف من جديد على قدميه في مواجهة عدوان العالم الحديث مناضلا عن وجوده وعن قيمته وقصيدة الشاعر عبد الوهاب البياتي المنشورة في عدد الآداب الماضي هي الوحيدة التي تنتمي الى هذا الاتجاه الفني وتمثله بين قصائد العدد ولذلك سنبدأ بمناقشتها وتقديمها وبعد ذلك نقدم باقي القصائد .

قصائد حب الى عشتار ـ عبد الوهاب البياتي

من الممكن ملاحظة بداية اتجاه تجربة البياتي الشعرية نحو الشمول في ديوانه (الذي يأتي ولا يأتي) حيث انطلق الشاعر متجولا في حدائق التاريخ وخرائبه قارئا في الاحجار وفي الطبيعة وعلى صفحات المياه وفي سير العظماء من الرجال والنساء وفي سير البسطاء من الرجال والنساء ، وفي روائع الادب والفن ، وفي هزائم الادب والفن كل ما يشهد بعظمة الانسان وما يهبه دافعا لمقاومة الشر . لقد بدأ البياتي شاعرا رومانسيا ثوريا وركز اعلامه في فترة تالية في ميدان الشعر السياسي مستبدلا منفى بمنفى جديد ، وهو الآن مثل سان جون برس ، يشعر في قصائد حب الى عشتار بأن عليه ـ ان يفتح من جديد موطنه الجميل ، والمملكة الجميلة التي لم يعد يراها منذ الطفولة وان يذود عنها في نشيده ـ . لم يعرف البياتي آلام الازدواج الذي تفرضه الحياة على الشاعر المعاصر ، والتمزق بين ضرورة التآلف جزئيا مع هذه الحياة كانسان وبين ضرورة الوقوف ضد شرورها كشاعر ، فقد ظل البياتي منفيا مما جعل من حياته وشعره شيئا واحدا ، في تفاؤله وفي تمرده وفي حزنه وفي دفاعه عن الحرية وتغنيه بصمود الانسان . وقد تنازل البياتي في سبيل ذلك عن كل شيء ، ولم يمتلك غير كلماته وقصائده ، وعاش اميرا مفلسا متجولا في الزمان والمكان جامعا لكل ما يشهد بعظمة الحياة .

ويتحول الشعر الى قتال لا هوادة فيه حين يتوحد الشاعر والانسان والمنفى . فهو يدافع عن نفسه حين يدافع عن الفقراء وحين يندد بقوى الشر وحين يستمد من ثراء الطبيعة وحكمة التاريخ والمزق الاساطير التي خلقها الانسان شهودا على عدالة قضيته . وقد استطاع البياتي ان يفعل ذلك مغنيا لان الغناء بالنسبة له حياته نفسها وليس عزاء خياليا او تعويضا بالوهم او تنفيسا ذاتيا .

طالب البياتي بالحرية والعدل ووقف في جانب جموع الفقراء ضد مستغليهم ومضطهديهم وقت ان كان يعيش داخل وطنه الاول وهو الآن بعيد عن هذا الوطن وما زال واقفا ضد عالم السطوة والارهاب ولكنه لم يعد يقتصر على رفع شعارات الثورة والحرية والعدل وانما يهدف الى بعث وطنه الاول واستعادته فيتلمس الطريق في صورة شجرة السرو ، في قطرة نور بين نهديها الصغيرين ، وفي رعشة بركان يثور في أحشائها ، في الرقة الصامدة ، وفي القوة الدفينة ، ويتلمس الطريق في وجه عشتار الجميل الذي لا يغيب عنه في منفاه ويظل يلاحقه رغم القتل والارهاب والسحر وموت الآلهة ، ويتلمس الطريق في قوانين الحياة الازلية ، في النمو والتفتح والازدهار ـ صارت الوردة طفلة . صارت الطفلة انثى عاشقة ـ ويتلمس الطريق في شواهد الماضي التي تؤكد وجود الانسان وتنفيه في نفس الوقت ـ من هناك مرت وفي هذي الطلول الدارسة . لاحقتني لعنات الآلهة . والذئاب الجائعة ـ ويتلمس الطريق الى بعث وطنه الاول الجميل في الصراع والجدل والتناقض والحركة حيث يولد الامل من العجز والجوع والتساؤل ـ من ترى ذاق ـ فجاعت روحه ـ حلو النبيذ ؟ ـ وحيث يرسو سخاء العالم الاسطوري فوق كآبة المقهى . وحيث تومض صور البعث الجميل خلال توالي عمليات الهدم والبناء مجسدة في شجرة السرو ، واشواق المنفى عن وطنه ، ونمو الجسد الانساني ، والجوع في بستان مثقل بالثمار ، والتساؤل امام معجزتي الحياة والموت ولون عيني عشتار وذكريات العطش القديمة والانتصارات القديمة .

ويبدو الانسان في قصائد حب الى عشتار ممزقا مشدودا من جانبين متناقضين . الطبيعة والاسطورة والتاريخ والعقل في جانب يؤكد قيمته وقدرته على ابداع الحياة وفي الجانب الآخر يوجد عالم السطوة والقتل والارهاب والملوك السحرة ومن خلال الصراع بين هذين العالمين يولد الطريق والخطى وتلوح صورة الوطن الاول في بعثه العظيم والامل في ان لا تسقط ازهار الانسان قبل ان تمنح الحياة الثمار .

فالقصيدة تجسيد فاتن لهذا الصراع يؤكد لورثة البناءين الاول قدرتهم اللانهائية على النضال .

الانتظار ـ ممدوح عدوان

كان على من استطاع من شعب فلسطين ان يتشبث بالارض بعد الاحتلال الصهيوني ، وظل جزء من هذا الشعب المناضل متشبثا بأرضه صامدا مناضلا منتظرا الحرية او الموت ـ ان لم يرجع فارسنا . سنظل الى ان يأتي الموت ـ وقد استطاع الشاعر ممدوح عدوان أن يكشف عن الجوهر البطولي لهذا الانتظار في قصيدة أشبه بنشيد يتغنى ببطولة الصمود والتشبث بأرض الوطن . وقد استطاع الشاعر بصياغته الفنائية الحارة ان يجسد هذا المعنى على نحو قوي مؤكدا بذلك ان الشكل الفني خاضع في نهاية الامر لمقتضيات التجربة التي يعبر عنها الشاعر ، ولقد تكون الصياغة الفنائية بكل ما تتسم به من تعميم وطابع رومانسي اكثر الصياغات توفيقا في تجسيد تجربة ما تتطلب تلك الصورة .

جذور الريح ـ مقطع من قصيدة طويلة ـ حسب الشيخ جعفر

سبق ان علقنا على اجزاء اخرى من قصيدة الشاعر حسب الشيخ جعفر وناقشنا ما اثارته هذه الاجزاء من ضرورة تحديد مفهوم القصيدة الطويلة على نحو موضوعي فلا يكتفي بمجرد الاستدلال بطول القصيدة وعدد الابيات . وانما بالدلالة الفنية للتسمية التي تتطلب شكلا متميزا وبناء خاصا . ولا نود ان نعيد اثاره هذه القضية او ترديد ما هو معروف بداهة في الفن من ان الحكم الصحيح على العمل الفني لا يمكن استخلاصه من خلال بعض اجزائه وانما يلزم تناول العمل بأكمله حيث ان الاثر الكلي للعمل يعد من أشد العوامل تأثيرا في تدعيم الحكم النقدي . وعلى اية حال فاننا نواجه تطورا في فنية الشاعر لا يحتاج الى كثير من الجهد للتعرف عليه في ذلك المقطع المنشور في العدد السابق بعنوان (جذور الريح) ونلاحظ تركز التجربة في هذا المقطع في صوتين واضحين متميزين بعد تشتتها في المقاطع السابقة تحت عناوين فرعية مثل صوت اول وثان وثالث وكورس .. الخ ونلاحظ نجاح الشاعر في خلق المناخ الدرامي بقدرة غير عادية على السرد الصوري المركز وفي تجسيد الصراع من خلال الجدل بين الصوتين . الصوت الاول وهو ما يمكن ان نسميه بصوت الراوي او الشاهد او المأساة والصوت الثاني ويمكن تسميته ايضا بصوت البطل او المحارب او الفدائي . ولعل عثور الشاعر في هذا المقطع من قصيدته الطويلة على الشكل المبسط والملائم للتجربة هو سر القوة والتدفق والحركة التي نشعر بها تسري بين الابيات وفي تلاحق الصور الشعرية وتحررها وجدتها مما يضفي على التجربة عفوية ظاهرة تجعلها سهلة التلقي بينما يختفي خلفها ـ كما يجب ان يختفي دائما ـ جهد الفنان .

عرس الارض ـ خالد ابو خالد

يستمد الشاعر خالد ابو خالد مادة قصيدته من عالم الخيال والنغم والحكمة الشعبية ويعيد صياغة هذه العناصر مستعينا بها في التعبير عن قصة غربة الانسان الفلسطيني عن أرضه ومجد نضاله من اجل استعادة ارضه وحريته . وهو لا يكتفي بالاستفادة من هذه الجذور الفولكلورية على طريقة الشاعر الشعبي وانما يخضع مادته لفن صياغي جديد . ويبدأ بافتتاحية اشبه بالموال في المقطع الاول ثم يثني بأبيات مكتوبة في شكل الحوار ، قصيرة ، حادة ، تتصادم مع بعضها على نحو متواصل ومتصاعد سرعان ما يكشف للقارىء في صورة صارخة عن طبيعة التجربة التي سيواجهها .

ـ طفلتك
ـ يزوجونها للاعور الدجال ... طفلتك
حناؤها دمك

وينتهي المقطع الثاني بعد ان يكون الشاعر قد مهد القارىء تماما للمأساة المقبلة حيث تتجسد في المقطع الثالث عندما يلوح الموت ، ليس بوجهه المادي المألوف وانما كرمز للانفصال عن الحياة واليأس :

أكلتهم ـ أكلت بعدهم رغيفهم
لان حزنهم عقيم
ناموا على ايديهم ... تصوفوا
وأصبحوا ملائكة

ولكن الحياة لا تشبه اسطورة المغارة التي قتلت الانبياء ، كذلك فان الانفصال عن الحياة واليأس ليسا بأكثر من وقفة محزنة في مسار الوجود وها هي روح النضال والتفاؤل تعود في المقطع الرابع نابضة بمنطق الحياة فلا يقدم لنا الشاعر صورة مثالية صافية لكفاح الانسان وعلاقته بالارض وانما يقدم صورة واقعية خشنة وعميقة الدلالة للانسان الذي يحتمل اللعنة والحرمان من أجل استعادة ارضه كذلك فان العرس في المقطع الختامي في القصيدة لا يجسد انتصارا ماديا لم يتحقق بعد وانما يجسد انتصار الانسان المناضل على نفسه كبداية ضرورية لتحقيق انتصاره على عالمه .

ملاحظات قبل الرحيل ـ محمد عز الدين المناصرة

تهز قصيدة الشاعر محمد عز الدين المناصرة وجدان القارىء بعنف فهي قصيدة نضالية معاصرة ، لا تناقش ولا تصف ولا تتغنى ، لا تتفاءل ولا تتشاءم ولا تردد الشعارات المألوفة ولكنها ترفض وتتحدى وتمزق . ولا يحدث ذلك الرفض والتحدي والتمزق من خارج المأساة او من لحظات تأمل عاطفي وانما من خلال بعض تفاصيلها الصغيرة ، من خلال الرسائل الناقصة ، وشوق الام لرؤية ولدها ، والليل المقرور الذي ينتظر العائد وكل ما يفتح العيون على الوجه المادي للمأساة ، وكل ما يؤكد عبث التهويم فالمأساة عالم المناضل الوحيد ، وعليه ان يتشبث به ويدعو الاخرين لمثل هذا التشبث . وقصيدة محمد عز الدين المناصرة من القصائد النضالية العليلة التي لا يلجأ فيها الشاعر الى الخطابة والنغمات العالية لتحقيق الاثارة المطلوبة ، وانما يشق طريقه الفني الى هدفه في دروب اكثر هدوءا وعمقا وارتباطا بواقع المأساة ويستعيض بالرمز عن الدعوة المباشرة وبالصورة عن الهتاف وبالتقرير الموجز المختار بدقة التكلف البلاغي وهو لذلك اكثر قربا من روح القصيدة المعاصر ومن حقيقة المأساة التي نواجهها .

من مفكرة فدائي ـ عمر أبو سالم

تحول العمل الفدائي الى رمز للموقف الذي يتخذه الشعب العربي من مأساة احتلال الصهاينة لارضه في فلسطين وغيرها . وقد غير هذا الموقف من صوره المأساة واحتمالاتها . فبعد ان كنا عطاشا على دروب القيظ نسأل الظلمات . ونمد أكفنا ، ونحلم ، ونترقب الصباح عبر مدامع الاطفال . تبدل حظنا باتخاذنا الموقف الجديد وغادر سيفنا غمده ، وتلاقينا ، وجزنا أبحر الظلمات ولم نعد نحيا على التذكار ، واقترب الصبح الحقيقي ولاحت صورته الاخاذة الآسرة :

عبرت النهر مرتقبا نداك الفض
عل مياهه ... تسخو وتغسلني
وقلت اراك يا أرضي ويا وطني

هذه هي التجربة التي يقدمها لنا الشاعر عمر ابو سالم في صورة واضحة قوية التكوين والبناء ، محملة بطابع الاداء التقليدي ، وان لم يفقدها ذلك حرارتها الاصيلة .

من تجولات الحجاج في الليل ـ عبده بدوي

لعله اشد ايلاما للنفس ان نركز أبصارنا على ضعفنا وآثامنا رغم ان ذلك ضروري ليتحول حلمنا بالخلاص الى امتداد عميق للحياة ولا

يكون مجرد وهم ساذج هروب لا يلبث ان يتحطم على صخور الواقع ويتبدد مخلفا احساسا اعمق بالهزيمة . فلنواجه اذن صورة التشوه والذعر والموت ولنتعرف على مكاننا ومسؤوليتنا في هذه الصورة فان من لا يمتلك الشجاعة لمواجهة ضعفه لن يجد القدرة على تخطيه .

لقد تعود الناس على الاشاحة بوجوههم عند رؤية الوقائع المخيفة او القاسية . ويستطيع الشاعر ان يجنبهم تلك الرؤية بتغليف تجربته المؤلمة بالاستعارات والرموز بحيث تبدو مقبولة لدى الناس . ولكن اما حان الوقت لكي نتقاسم معا وبشجاعة حصاد افعالنا وصمتنا والمرارة والحزن . نحن المسؤولون جميعا عن بشاعة عالمنا ؟ بهذه الروح الداعية الى المشاركة الشجاعة يقدم لنا الشاعر عبده بدوي قصيدة قوية ومخيفة وخالية من العزاء . انه يقسو في سخريته الرامزة وفي اختياره لصور السطوة التي تسحق البراءة مجسدة في موت العصافير وضياع الكتاب وتوقف الاطفال عن اللعب . لقد وفق الشاعر في تكوين الصورة الساخرة مثل صورة القمر الهارب خلف السحب خوفا من استجواب بلا سبب ، ووفق في اختيار رموزه المستمدة من واقع الحياة مثل الاطفال والعصافير والكتاب وعصا الحجاج ووفق اخيرا في اختيار الرمز الاساسي من التاريخ واستطاع ان يجسد عالما من التسلط والذعر يصيب الحياة بالعقم والجفاف من خلال ما يستثيره ذكر اسم الحجاج وعصاه والقليل من صفاته وافعاله وكلماته . وقد اجاد الشاعر عبده بدوي استخدام اسلوب السرد الدرامي الذي يعتمد على الايجاز في تصوير المكان والجو والمشاعر ويهتم اهتماما كبيرا بالحركة وتطوير الانفعال في القصيدة وحقق بذلك مستوى يدعو الى الاعجاب في الصياغة المعاصرة للتجربة الشعرية .

قصيدة للانسان ـ محمد الشيخي

يلجأ الشاعر محمد الشيخي الى الخطابة والتقرير ونظم المعاني في صياغة تجربته فتبدو القصيدة اقرب الى النشيد الحماسي التقليدي منها الى القصيدة العصرية . ان اهم ما نلاحظه على قصيدة محمد الشيخي افتقادها للرؤية الخاصة وانحصارها في التعبير عما هو عادي وعام . واننا نحن الذين نناضل في سبيل تحرير أرضنا مقتنعون سلفا بعدالة موقفنا ولا يجدينا كثيرا تقرير ما هو معروف على مستوى الادراك العادي وان جاء ذلك التقرير في اسلوب بليغ ذلك لان دور الفن على خلاف ما فعل شاعرنا يتمثل في قدرته على التجسيد الرمزي او الواقعي لعالم المأساة من خلال رؤية الفنان الخاصة التي تكسب المعاني والافكار وجودا حيا مرتبطا بالصورة الشعرية ، وجودا مختلفا عن ذلك الذي تخلقه الخطابة والهتاف ونظم الافكار فمن هنا تبدو اهمية المفاهيم المعاصرة للقصيدة التي تدعو شاعرا مثل محمد الشيخي الى التزود بمكاسبها ليمنح تجاربه الفنية قوة كبرى في التعبير والتأثير .

صفحتان من مذكرات فدائي ـ وليد أبراهيم سيف

الحنين والحلم لحظتان متعانقتان عناقا خالدا وما اسهل ان يصبحا لحظة واحدة ممتدة في الزمان . وقد يقال بانهما يمثلان موقفا سلبيا تجاه معركة التحرير واستعادة الارض التي تتطلب فعلا ايجابيا قبل أي شيء آخر . ولكنهما في قصيدة الشاعر وليد سيف يتسمان بايجابية حقة ، فهما يملآن المسافة الدامية بين حاضرنا الجريح والمستقبل الذي نصبو اليه ، يملآنها بأغنية حب حزينة للارض المغتصبة ، بقبلة خضراء ، وموعد ، وحنين الى الحبيبة وواحة الجد وشيئا فشيئا تتجسد صورة الحلم في المقطع الثاني من القصيدة ويتحول الاحساس الغنائي الغالب على المقطع الاول في القصيدة الى خلفية للحب المتوهج الذي يفرع زنود الرجال ويجدل أعشاش الصبح وتلوح صورته بابا مفتوحا لكل الناس . ولقد تثير الدهشة صورة العصفور الذي يبيض على بقايا الترس التي يختم بها الشاعر قصيدته ولكن هذه الدهشة لن تجد لها مكانا في نفوس المدافعين عن حريتهم وعن حرية الانسان لانهم يعلمون جيدا كيف يمتزج الحب بالموت في كل خطوة على طريق النضال .

صليب من الازهار ـ شوقي العمري

في استطاعة الشاعر ان يفجر نبع الاشتياقات الانسانية النبيلة من صميم عالم المأساة . ويقدم الشاعر شوقي العمري في قصيدته صورة لهذا الابداع فيصنع صليبا من الازهار ، ويمزج بين أشد صور الحياة قتامة وأشدها تألقا وازدهارا ، ويستمد من الطبيعة الخلابة في ارضه المغتصبة ومن رموز الحكايات الخرافية ومن توهج الذاكرة المادة التي يصوغ منها صورة مأساته واشتياقه وحلمه التي تنتظمها مقاطع القصيدة الثلاثة فمن خرافة الساحر والامير حارس الطريق تولد الاغنية الاولى ولكنها ما ان تأخذ في النمو حتى تحاصر آلام العام العشرين ، وسعال الريح ، والملح والسرقة والقتل . تولد الاغنية لتسقط في شراك عالمنا ولكنها تنهض من جديد محملة بأشواق هذا العالم نفسه ولا تتوقف على حدوده وانما تأخذ في التعالي مستمدة قوة جديدة من عالم الذكريات حين كان الانسان قادرا على الحب والتعاطف ويستعيد الشاعر همسات الحنو القديم ويلوح له ولنا ذلك المعنى الانساني العميق المختفي وراء الحزن وترق الصور وتنساب لتمنح الشاعر في مقطعها الختامي زنار ورد وغدير طائر مسافر وقبلة ازهار وكئوس من الشمس البعيدة ونهود دالية على سطوح تلة بلا ضباب ويسطع المشهد تحت ضوء جديد ، ضوء الامل المتجسد في عيون الصديق ، والمتحدي كل حزن او سور او موت معلنا ختام هذه القصيدة الرقيقة القوية البناء .

القاهرة — شوقي خميس

حديقة الشتاء

للشاعر

محمد ابراهيم ابو سنة

صدر حديثا — الثمن ٢٠٠ ق. ل.

القصص

بقلم فاروق عبد القادر

***

اذا رجحت كفة لا بد ان تشيل الاخرى . هذا صحيح . والكفة التي شالت هنا هي قصص العدد الماضي من الاداب . أربع قصص لا تتميز منهن واحدة فتلفت النظر ، قصص متوسطة القيمة لا تضيف الينا الكثير فنيا أو فكريا : « العصافير » لرشاد ابي شاور ، « الارض» لفائز محمود ، ثم « العطف » ليوسف الحيدري ، و « طعم للفيلم » لفهد الاسدي .

المكان عامل مشترك بين القصتين الاوليتين : العصافير والارض . وعند الفلسطيني اصبحت فلسطين الان كلها الى الغرب ، فانت اذا وقفت حيث وقف بطل القصة الاولى ـ على ما كان الضفة الغربية للاردن ـ فلا بد ان تتجه بناظريك غربا ، فما بين نهر الاردن الى الشرق ، والبحر المتوسط الى الغرب يتمدد ـ منهكا ـ جسد فلسطين، وانه اذا وقفت حيث وقف بطل قصتنا بحيث تبدو لعينيك ـ على البعد ـ أشجار البرتقال في سهول الاغوار فقد تحس احساسه : الى الغرب هناك الذي ضاع ولا بد من استرداده ، كلنا لن نستطيع العبور الا مقاتلين .. تسبقنا فوهات السلاح ، لا بد .

(لكن العصافير لا تعرف هذه الحدود بعد . فبوسعها أن تنتقل من شرقي النهر الى غربيه ، تبيت الليل على شجرة هنا وتلتقط غذاءها من حقل هناك . وفي الصباح الباكر ترتفع سقسقتها ـ بعد أن نفضت عنها نوما عميقا ـ لتعلن مجيء نهار جديد . بطل القصة من مكمنه خلف هضبة صخرية باردة يتابع غمامة الليل وهي تنزاح تدريجيا تحت الاشعة الدافئة المضيئة ، وحده مع الطبيعة والسلاح : الطبيعة تغمر روحه بالحنين الى ارض تستلقي هناك غرب النهر كان له فيها اصدقاء وذكريات ، والسلاح يمنحه الثقة في أنه يستطيع يوما أن يعبر .. الى حيث تلوح أمامه من بعيد برتقالات نظيفة ومغسولة في بيارات الاغوار .

صوت العصافير يرتفع ، والشمس ايضا ترتفع . وفجأة .. يرتفع هدير الرصاص ، عبر الرجال تحت وابل الدم والموت ، تآلفت العناصر كلها معا : الطبيعة والسلاح والانسان . وحين حدث هذا تناغمت سقسقات العصافير المفردة وذابت كلها ليتصاعد غناؤها « كجوقة منتظمة الانشاد .. ») .

« مر بجانب اذنه اليسرى « وشيش » ، اخفض رأسه ، رصاص طائش ، ارتطم بكتفه شيء ، تلفت جانبه ، التوت ذراعه لتجوس القماش فوق الكتف . دم . لا يعقل .. ارتجفت أمامه بقايا طائر دوري ، وبسرعة فهم ما حدث . اخرج منديله من جيبه ، لم بقايا العصفور بحرص ، حملت أصابعه بعض حبات التراب المدماة . حين انتهت نوبة الحراسة تسلق المسارب الصاعدة بين الصخور ، توهجت الحياة بنور الشمس، حلقت العصافير مبتعدة في الفضاء الرجس رؤوسها تتجه الى الغرب . خاطب نفسه : غدا سأدخل مع المجموعة وسأدفنه هناك ، في الارض غربي النهر . » .

هذه قصة رشاد ابي شاور الجديدة . بسيطة جدا وانسانية . وتقول لنا : نحن لا نستطيع العبور الا مقاتلين ، حتى طائر الدوري ـ الذي يعلن فرحة الحياة بنهار جديد ولا يفلت من رصاصهم ، ونحن لا نستطيع ان نعلن فرحتنا بالنهار الجديد الا اذا ارتفع دوي الرصاص مع مطلعه .. لتنسجم العناصر الثلاثة معا : الارض والسلاح والانسان .

لي ملاحظة حول استخدام الكاتب لبعض التعبيرات . مثلا : « ادلهم في شرايينه شوق الى اماكن غير بعيدة ، ينفسح بينه وبينها شريان أخضر .. » ، انني استطيع ان افهم المعنى على هذا النحو : انه يشتاق الى اماكن قريبة يمتد بينه وبينها واد اخضر . أما استخدام كلمتي : ادلهم وانفسح هنا فهو استخدام ناب وغريب ، كذلك وهو يذكر قريته ـ أو مدرسة قريته بالتحديد ـ فيقول : « تخرج منها رجال لهم فرادة خاصة .. » ما فرادة هذه ؟ .. لا شك عندي انه يعني تفردا خاصا .. ، ان بعض الالفاظ تفرض نفسها على الكاتب فيستسلم لاستخدامها دون أن يكون لها معنى في ذاتها ، أو تكون بعيدة عما يقصد التعبير عنه . (هذه الملاحظة نفسها تنطبق ـ بتوسع اكثر ـ على قصة فايز محمود التالية كما سنرى .) .

***

يتخذ فايز محمود من الصراع التقليدي بين الارض والبحر رمزا يتكثف فيه الصراع بين العرب واسرائيل . ويساعده على الربط بين هذين اللونين من الصراع أن جسد فلسطين كله اصبح الان يتمدد بين البحر (الابيض) من ناحية والنهر (الاردن) من الناحية الاخرى ، وان الغلبة من هذه الجولة الاخيرة كانت للبحر حتى ابتلع الارض كلها. هذه هي الفكرة المحورية في قصة فايز محمود بمقاطعها الستة ، نتلمسها تلمسا وسط التشبيهات والاستعارات المتشابكة والملتفة والتي لا يفعل كثير منها سوى اضافة مزيد من الغموض الى البناء التعبيري للقصة .

في المقاطع الثلاثة التالية نتتبع دورات في الصراع بين البحر الغربي والارض . الارض ملأى بينابيع المياه العذبة لكنها تفيض ، والارض كلها مهددة بالجفاف ثم الموات .. ولا تجد امامها سوى الماء المصفى الذي يقدمه لها هذا البحر الغربي (العدو) ، وفي اقصى الشرق عالم يصنع سماءه بنفسه ويجعلها تمطر ، ويحفر ينابيعه بنفسه ويجعلها تدفق ، لكنه بعيد وقصي جدا هذا العالم في أقصى الشرق !..

والان ؟ ـ نضبت الينابيع في الارض المحترقة ، ودمر البحر العاصف سواحلها ، وباقي الارض التي انقذت مهددة بالقحط وتخشى هذا البحر الغربي (لانه اسطوري القوة .. أم لانه استطاع ان يحرق الارض بالفعل ؟ ..) ، والبحر الميت دبت فيه الحياة .. لانه يود ان يقتات بحياة الارض . تمر الاعوام ويستشري القحط ، والبحر يهدر ماؤه المالح ليغرق ما تبقى من الارض .. ، والعالم الذي في أقصى الشرق لبى نداء الارض العطشى فارتفعت اباره هنا وهناك ..

ثم .. « كان حر حزيران اللاهب ، كأنفاس الشيطان يصعد تجاه البحر الميت الى اعلى . وكان البحر يزفر غيظا » .. وهدرت امواج البحر الغربي بالشر ، ورويدا رويدا ابتلع البحر الغربي البحر الميت ، وامتدت شواطيء البحر الغربي حتى حفاف الارض الشرقية العالية حيث كان النهر المقدس سابقا يحدها من هذا الجانب ..

في هذا المقطع ـ الخامس ـ والذي يليه ـ السادس والاخير ـ نستطيع ان نضع اليد بوضوح على ما تهدف اليه القصة كلها بعد الخلط الذي يسود مقاطعها الاربعة الاولى : حين أغرق البحر الغربي في حزيران ما بقي من الارض جاء وقت نبتت فيه بعض الاعشاب ، ثم بدأ سطح الارض يتفتت ويتشقق ترابه ، والارض الصلبة صامدة في جوف البحر الغربي العملاق . « ستظل بعد الان تلك الارض المغمورة تمتص ماء البحر ، تمتصه حتى يفقر . وستظل تلك الارض الكبيرة تحاصره باستمرار حتى لا يطغى اكثر ، وستبقى تجفف شواطئه حتى يتراجع .. انها المعركة الخالدة الابدية بين الارض والبحر .. » .

فرض الكاتب الفكرة مسبقا : ان هذا الصراع بين العرب واسرائيل يشبه الصراع بين الارض والبحر . ثم راح يتابع دورات هذا الصراع بعد ان يدخلها في قالب الصراع بين الارض والبحر . من هنا جاء القسر في البناء التعبيري للقصة ومحاولة اخضاع رؤية هذا الصراع ـ الانساني والحضاري في جوهره ـ لمقولات الصراع الفيزيقي بين الارض والبحر ، من هنا أيضا جاء الخلط ، الافكار غير المتمثلة فنيا والتي تصب في ترادف للكلمات لا يعني شيئا . ومن الناحية الاخرى .. فان رغبة الكاتب في أن يضع مقولات هذا الصراع ـ الانساني والحضاري ـ داخل مقولات الصراع الفيزيقي بين الارض والبحر قد الجأه الى ان تميع دلالات الرموز (أو ما حاول ان يجعله رموزا) : ما البحر الميت وماذا يعني ؟ .. وما هذا العالم في أقصى الشرق الذي

يضع سماءه بنفسه ويحفر ينابيعه بنفسه ؟ .. ونصل معا الى هذه النتيجة : ان الاعشاب مهما قويت يمكن اقتلاعها دائما .. لانها بلا جذور ممتدة في احشاء الارض . والصراع بين الارض والبحر ينتهي دائما لصالح البحر الا حين يتدخل في الصراع طرف هام هو جهد الانسان ونضاله ضد طغيان البحر . ولكن اين هو الانسان في قصة مفروضة سلفا .. تحاول ان تتلهى باخضاع عناصر صراع الانسان من أجل أرضه ووجوده لعناصر صراع بين ارض مستسلمة من ناحية وبحر هادر بالغضب من الناحية الاخرى ؟..

***

القصة الثالثة في هذا العدد هي « المعطف » ليوسف الحيدري من العراق .

والمعطف في الحقيقة كان للعريف جابر ، الجندي الشجاع الذي حذره رفيقه من ان يرفع جسده اكثر مما يجب داخل الخندق الذي كانوا يحتمون به من رصاص الاعداء ، لكن شجاعته تغلبت على حذره ، وخرقت صدره العريض زخة من رصاص بارد فطرزته بفوهات صغيرة حمراء . (لا بد ان تكون أوسمة ، فهذا هو التعبير ـ الكليشيه !..) . والقصة يرويها رفيق العريف ، وقد حصل على اجازة بعد « هذه الحادثة التي لا ينساها .. » ، وهو الان يهوم في مقهى خشبي مسور ، يلتمس الدفء من المدفأة الكبيرة التي تتوسط المقهى .. ويتذكر .

كان عليه ـ بعد ان اصيب عريفه ـ ان يجرجر جسده الضخم الى خلف التلة الصخرية الصغيرة ، « ومن هناك ـ وعلى مسافة عشرات الامتار ـ الى حيث تتناثر خنادق متروكة فارغة رحل عنها الاعداء مذعورين تحت نيران القوات المتقدمة ، من هناك الى اقرب مركز طبي للاسعاف العاجل . عليه اذن ان يقطع مسافة نصف كيلو متر او اكثر قليلا ، معرضا نفسه لوابل القنابل والرصاص الذي لا ينقطع من مواقع العدو . » . وما بقي من القصة هو السباق المحموم بين الجندي الذي يحمل جسد عريفه من ناحية ، والموت الذي يسعى الى هذا الجسد نفسه من الناحية الاخرى . (راجع : قصة يوسف ادريس « خمس ساعات » ، مجموعة « ارخص ليالي » ١٩٥٥) . في هذا السباق المحموم انتصر الموت : « أخذ يهز جسد العريف الذي كان قد تحول الان الى لوح بارد ، وكان النزيف الحار قد توقف تماما . ولمس الجسد بيد مرتعشة . كانت برودة شديدة تسري فيه .. وكانت عيناه الجاحظتان نصف معلقتين تحدقان فيه بمرارة وعتاب . كانت النظرات غريبة احتار في تفسيرها .. نظرات لن ينساها ابدا .. لم يعد يطيق احتمال تلك النظرات بعد . وامتدت يده المرتعشة لتغلق بحنان كبير جفنيه الباردتين، ومسح العرق الغزير الذي يسيل على طول وجهه ويدخل عينيه ليمتزج مع حبات دموعه الساخنة .. » .

لكن هذا الانتصار الذي احرزه الموت في السباق المحموم يلغيه ويشمله انتصار اخر . كان العريف جابر يحتضر ورفيقه الذي يحمله يدمدم دون وعي . « انظر (الى الاعداء) كيف يفرون كالفئران المذعورة تحت قصف مدافعنا الثقيلة .. تأمل يا عريف جابر كيف تتهاوى معسكراتهم وكأنها بيوت من القش .. لقد انتصرنا يا عريفي .. هيا متع نظرك من مشهد النصر .. » ..

هكذا يتصور الكاتب ان تتحول الخسائر الى ارباح : أن يخدر احساسنا الوطني في مقابل موت البطل . كلنا لسنا بحاجة الى هذا المخدر . فنحن نعرف ـ ويجب ان يؤكد ادبنا الجديد بعد ١٩٦٧ هذه المعرفة ـ أن المعركة بحاجة الى قتلى كثيرين ، وعلينا ان نرى موتهم الغالي امرا طبيعيا ومتوقعا ، بل واكثر من ذلك : امرا لا بد منه ان شئنا ان نصل الى انتصار حقيقي في النهاية . اما ان يلعب الادب دور « حلم اليقظة » فشيء لن يكون مقبولا في هذه المرحلة من حياتنا ، وقد وصلنا الى اقتناع كامل بأن التهويل والتهوين وجهان لحقيقة واحدة : كلاهما يشوه حجم الواقع بعلاقاته الموضوعية التي يجب ان نعيها جيدا كي تثبت خطانا على الطريق .

القصة الرابعة والاخيرة من العراق ايضا : « طعم للفيلم » لفهد الاسدي .

تدور القصة حول حياة طبقة من الفقراء في أحراج جنوب العراق حيث تنمو غابات الهور (البوص) . وعلى عمال البواري ان يقطعوها لتحملها المراكب الى بغداد . والحياة قاسية وجهمة : قليلون هم الذين يملكون وعلى الباقين جميعا ان يبيعوا جهدهم من اجل ما يقيم اود الصغار . الحاج عبد الرزاق واحد من هؤلاء الذين يملكون القوارب ، وهو يشتري الهور من العمال بثمن بخس ، لكنه لا ينسى ان يقيم مجلس العزاء في كل سنة عندما تدق الايام العشرة (من المحرم) ، وهو يتبرع لمشروع الشتاء (ببضعة دنانير) بعد الحاح ، وهو ابدا لا يترك حقه يضيع ، وحكايته مع « جبير » تؤكد هذا :

« كان جبير واحدا أقلعت به الحاجة ، فوقفت سفينته بباب الحاج، هتف بذل :

أيها الحاج ، أطفالي يجوعون والمروءة لا تقبل .

ـ لماذا لا تشتغل ؟ ..

ـ ولكن ايها الحاج كيف اشتغل ولا زورق عندي اذهب به للهور ؟ ..

ويصمت الحاج طويلا ثم يرق منه القلب ، فيبيعه زورقا انتزعه من مدين لم يسدد له قبلا ، وتفتح صفحة من الدفتر الكبير باسم جبير .. » . (هذا الدفتر الذي يقول الناس همسا انه يمتلىء بالغش) . وستدور الدائرة على جبير كما دارت على المدين القديم ، فيحجز عليه الحاج وفاء لدينه الذي يزيد ولا ينقص ، فيختفي جبير وعائلته متلفعين بالظلام متجهين نحو البصرة ، وتظل الحياة دائرة في صراع قاس بين الذين يملكون والذين لا يملكون لان « الدودة المفكرة المتطورة مضطرة لان تعيش .. » .

واحد من هذه الديدان المفكرة المتطورة قرر ان ينتقم لجبير . كيف كان انتقامه ؟ .. ولكن .. من هو هذا الذي قرر الانتقام ؟ .. هو « عبيط القرية » (وفي كل قرية دائما لا بد من عبيط) ، اسمه طالب ، ويسميه الناس « طويلب » تحقيرا لشأنه وشأن أبيه ، سلخ من عمره سبعة عشر عاما دون أن يفارق الاطفال ، وكان يتلهى بان يصطاد السلاحف والغيالم ثم يرميها في النهر . « وفي يوم بعد سماعه حكاية جبير رمى صنارتيه فاصطاد غيلمين ، وبطريقه غلمانية قاسية ادخل مسمارين كبيرين في رأسيهما واخرج طرفي المسمارين في وضع لا يسمح للغيلم بان يدخل رأسه في ترسه .. ثم رماها في النهر . » . لم يكن هذا (فقط) هو انتقام طويلب ، فقد انتقم من الحاج انتقاما اخر : دبر له مكالمة تليفونية على لسان موظف كبير يبلغه انه قادم لزيارته .. « ساعتها يطفح وجه الحاج بانفعالات متناقضة ، وتجيء الفرحة مثلومة .. اذ ان الغذاء لموظف كبير ليس بالامر الهين وان كان شرفا لا يطمع به الا القليلون .. » ، هكذا يكلف الحاج نفسه مشقة اعداد وليمة كبرى ، وحين تعد المائدة يدخل ابن الحاج ليدعو الضيف الى الغداء فلا يجد في العتبة والرباط سوى طويلب ابن النوتي ! ..

تحولت القصة التي كانت جادة في نصفها الاول الى ما يشبه النكتة الفاترة في نصفها الثاني ، وجاء انتقام طويلب لاذلال جبير وطرده انتقاما طبيعيا بالنسبة لجبير .. لكنه انتقام غير مقنع بالنسبة لنا هل لم يكن بوسع « الدودة المفكرة المتطورة » ـ كما يصف الكاتب الانسان ـ انتقام غير هذا ، هل توريط الحاج في الاعداد للوليمة هو بمثابة رمي « الطعم للغيلم » ثم وضع المسمار في رأسه ؟ لكنني اعتقد ان ثمة وسائل كثيرة كان يمكن للدودة المفكرة المتطورة ان تلجأ اليها ، هذا اذا شاء الكاتب ان يجعل مضمون قصته اكثر جدية وانسانية ، ولم يقع في شرك الطرافة : طرافة شخصية طويلب وطرافة انتقامه .

الشيء الايجابي في هذه القصة هو نجاح الكاتب في تصوير الحياة في تلك المنطقة من جنوب العراق ، وسعي الناس فيها لانتزاع رزقهم ـ بمشقة وبطولة ـ من بين الاحراج والمستنقعات ؟

القاهرة

فاروق عبد القادر

المسرحيات

بقلم فوزي فهمي

***

مسرحية « الطوفان » لمؤلفها الدكتور عمر النص تستغرق فصلا واحدا يعرض خلاله موقفا تحمله ثلاث شخصيات حاضرة داخل الحدث وشخصية غائبة تهيمن على جو الموقف كله وتطوره .

فالمسرحية تبدأ بأب وأم يجلسان في غرفة بيت قديم ، يتحدثان عن « الطوفان » ، الاب يعلن سأمه وعدم احتماله لذلك « الطوفان » الذي استمر عاما وما زال ، اما الام فانها تتساءل هل ستعيش حتى ترى نهاية الطوفان ، ويشتد العزف الحواري بينهما فتعلو نغمة اللاأمان خوفا من ذلك الطوفان ، الذي سبب « للاب » رطوبة يحس بها تجري في عظامه كلها ، ويرغب في الشفاء منها بعد ان ينحسر هذا الطوفان . لقد قرر الا يذكره وان ينساه ، ولكنه ها هو ينبش اطلاله ، كان قد اغرق نفسه في اجترار ما قد سبق له ان قرأه « جرائد ما قبل الطوفان » حفظها وحفرت في ذهنه حفرا ، عاش معها فوجد فيها « ارضا صلبة استطيع ان اقف عليها انها الحقيقة الوحيدة التي لا مفر من القبول بها ، لقد سلبنا الطوفانكل شيء .. هو اذن يؤمن بتلك الصحف لانه لا بد وان يكون هناك ايمان بشيء والا أمسى خائفا في اعماق نفسه ، هذا الاجترار هو محاولة لاستعادة الايمان الذي فقده بفعل الطوفان ، لقد شق عليه ان يبقى قانعا في عزلة مصمتة فاقدا لكل شيء ، فلقد « غدت الحياة من ذلك الحين شيئا غريبا لقد انقطعت صلتنا بالوجود بالشمس بالدفء بالهواء ، لقد صرنا عبيدا مغلولين الى صخرة لا نعلم متى تنهزم امام الماء فتنحدر بنا الى القاع ، نعم لقد صرنا عبيدا ، غير ان العبد لا يفقد الامل من ان يصبح حرا ذات يوم . اما نحن فلا امل لنا من النجاة لا امل لنا » . اذن فهو يلجأ الى الاجترار محاولة للفرار من وعيه الحاد بالمأساة ، انه محاصر بين قطبين لا يمكن له ان يفلت منهما : الماضي المتمثل فيما يقرأه ، والمستقبل بكل توقعاته المستمدة من الواقع الضاري الذي يعيشه ، انهما يحولان دون شيء هام وخطير، وهو ان يرى نفسه ، ان يتجاوز هذا الموقف الذي يدور فيه ليتدبر امره ويجد الصيغة التي يقتحم بها واقعه ويجتاز ازمته ، لقد ذهب الابن الذي كان له المرآة التي يرى بها نفسه ، وعند هذا القدر يبرز تساؤل ذو شقين ، كيف جاء هذا الطوفان ؟ وما علاقة الابن ورحيله بهذا الطوفان ؟ ويتضح من حوار الاب والام انه قد كان بينهما وبين الابن نوع من اللافهم ، ادركاه متأخرا « لم اكن اعلم ان عينيه كانتا اقوى من عيني » . ان بين الجيلين انقساما احدهما « الاب » يمثل للاخر سلطة لها القدرة على التمسك برأيها بحق السيطرة المستمدة من وضعيتها ، والثاني « الابن » يمثل الرغبة النضالية في التحرر من موروثات شكلية عقيمة مستندة فينضالها الى ثقة بقدرتها على رؤية عالمها وايمان اساسه العقل على غير استعداد لقبول الرأي الذي شرعيته الوحيدة انه يصدر عن سلطة لا غير ، ان اساس هذا اللافهم بين الجيلين يكمن في انعدام الايمان بامكانيات الجيل الثاني « الابن » ، ان الاب يقف من الابن موقفا يبدو فيه التسلط والوصاية والرغبة في عدم اتاحة الفرصة لممارسة الوجود الذاتي وتحقيقه ، انه يقتحم عليه حصنه الخاص والذي يملكه وحده ولا احد غيره يتحرك فيه سواه .

قد يستطيع الاب ان يساعد ابنه على أن يتحرك ويحبو حتى يمشي ويتكلم ، ولكنه ابدا لا يمكن ان يعلمه كيف يحب وكيف يجد سعادته ، ان ذلك شيء يسكن تحت جلده هو ، يحسه ويدركه بادواته ولا يستشعره غيره ، ان منظور كل منهما للاشياء مختلف ، ان الاب يقف متحجرا رغم كل محاولات الجدل المر الذي يمكن ان يكون بينهما « لقد ظل يجهد في ارضائك زمنا » ـ ان الوصاية التي تستند الى وضعيتها وشرعيتها دون المحاولة للمشاركة في الرؤية وبذل الجهد الصادق للتعرف على وجهة نظر الاخر هي التي خلقت هذا التعارض .

من هذا الموقف الذي طرحه المؤلف ليكشف عن الجو الخانق بين الاب والابن ، يبدأ في الترشيح للاجابة عن تساؤلنا في محاولة الربط بين الابن والطوفان ، ويرسم صورة تقريرية يحملها حوار الاب والام لما كانت عليه حياتهما مع الابن ويبرر ذلك التعارض باختلاف المناخ النفسي عند كليهما .. كان يحلم احيانا فيخيل اليه ان في مقدوره أن يجعل من ذلك الحلم حقيقة كنت اريد له ان يهبط الى الارض ان يقبل بحدودها ان يخضع لنواميسها ولكن عينيه كانتا معلقتين دوما بنجم لا يراه أحد » . لقد كان الابن هو اول من حمل نبأ الطوفان قبل ان يحدث « رأى غيمة دكناء تسد الافق .. ليست كالغيمات .. قاتمة مريدة انفجرت فجأة فاذا بقطرات ثقيلة من الطين الاسود تتساقط منها « فاراد للناس ان تجابه الخطر وتستعد له ، انه يملك الرؤية ويحدس بها وايضا العمل الايجابي لدرء الخطر ، القوة الوقائية التي تنقذ المدينة » ان شيئا ما سوف يحدث وشيكا ، لقد ضحك منه فريق وسخر منه فريق اخر ، قلت له ماذا تريد ان تفعل قال نريد ان نبني سدا ». ان المؤلف استخدم مونولوج الاب الذي يروي من خلاله قصة التأزم بينه وبين الابن استخداما ايحائيا رائعا ، اذ هو يعود بالاحداث الى الوراء ، الى ما قبل الطوفان يستعرض الموقف من الخطر الذي لم يولوه ادنى اعتبار ، رغم المقدمات والاصوات التي ارتفعت منذرة به ، كيف كان الموقف منه ! الاستخفاف بالامر والاقلال من شأنه « ألان غمامة خبيثة مرت لحظة في سمائنا يجب ان يبني سدا ، ان بضع قطرات من الطين الاسود لا يمكن ان تحدث طوفانا » وايضا ادعاء العلم والنظر الى الاشياء من مسار فكر متحجر ثابت ، وكأن الاشياء تحكمها شروط لا تملك الاستثناء او التغير « قال احد الحاضرين انه طوف في بلاد الله كلها وقرأ اخبارها فلم يسمع بطوفان تحدثه قطرات قليلة » ، وحين انتفض الابن رافضا كل الوان التخاذل واللايمان ، وراح يعلن انه سيبني السد وحده واجهه من ينخر في قواه من لا يريد ان يتحرك وفي ذات الوقت لا يسع لغيره ان يتحرك « قيل له ان يديه ناعمتان صغيرتان لا تقويان على حمل رفش او رفع صخرة » . هذا السيف ذو الحدود المتنوعة والمصلت على رأسه والذي لا يؤمن بدعواه هو عينه الذي حكم على المدينة ان تعيش خطرها الداهم وخرابها وعارها .

ان الاب والام لا يستطيعان فعل اي شيء امام الطوفان ، ان عليهما ان ينتظرا نهايته وكلما امتلأ الطست بالماء المتساقط من سقف الحجرة ، فان عليهما ان يفرغاه ، هو بالطبع تجسيد لذلك الطوفان المهيمن على الموقف كله ، هذا العجز عن المجابهة وعدم القدرة والالام العديدة التي يفرضها الطوفان في كافة المستويات ، سواء المستوى النفسي « الا ترين الى هذه الديدان التي تزدرد ايامنا يوما بعد يوم ؟ اتظنين بعد هذا كله في امكاننا ان نتابع الحياة كأن شيئا لم يكن ! لا . من الافضل لي ان اموت قبل ان يراني » ، او المستوى المادي « لم يبق عندنا غير قليل من المؤونة يكفينا شهرا او شهرين » ، « ان قدمي تؤلمانني » ، « لقد نفد الدواء الذي كنت ادلكهما به » . كل هذا العذاب الجاثم فوق صدريهما لم يدفعهما الى البحث عن الخلاص ، كما فعلا من قبل حين راح الاب يقرأ صحف الماضي متشبثا مؤمنا بها واعتبرها الارض الصلبة التي يقف عليها ، وحين راحت الام تنسج عددا من الصدارات الصوف وتضعها في خزانتها ، لحظتها كانا يعيشان في ظل الاكليل الذي صنعه كل منهما لنفسه ، ولكن الامر الان يختلف ، ان ثقل العذاب وقسوته حطما ذلك العيش في اللحظة او اليوم وجعلهما يستشرفان مستقبلهما ، ان معرفة قيمة الحياة لا يدركها الانسان الا بوعيه لمعطيات الحياة والتي شحبت وضؤلت حين طوقتهما جدران البيت وحرمتهما من كل شيء وسلبهما الطوفان الامن والاستقرار والاستمرار في الحياة ، لقد رفض الاب سلواه التي اخترعها ، الظل الذي يعيش فيه من هجير الواقع « لقد سئمت هذه الصحف لقد سئمتها » وطلب من الام أن تترك هي الاخرى الصدار الذي تنسجه « انك تضيعين وقتك عبثا ، لقد انتهى كل شيء » لقد امتد الطوفان حتى غمر كل رقعة ، هل تظنين ان تلك الفتية الضعاف الذين يحاولون بناء سد سوف يفلحون في حسر هذا الطين الملوث ؟ »

ان الرجل قد اكتشف موقعه تماما من المأساة حين غابت عنه معطيات الحياة « اننا مدانون ، لقد انكرنا أصدقاؤنا انكرنا ابناؤنا ، انكرتنا حتى الاشياء التي التصقت حياتها بحياتنا . اننا مدانون لقد حكمنا على انفسنا قبل أن يحكم علينا الاخرون » . لم يستطع ان يتحمل المحنة ـ التي شارك في خلقها ـ حتى الامل في النجاة منها انطفأ بريقه لديه ولم يعد يحلم سوى بالموت « يخيل الي انك تريدين ان تطيلي هذا الخيط الممدود الذي يصل بيننا وبين الحياة ، ترى هل تظنين ان هذا الوهم يستطيع ان يمنحنا فرصة اخرى ان يهب لنا عمرا اخر » انه يعلم انه لا محالة مائت وسط هذه المحنة فقد تماسكه الداخلي واصبح خلوا من القوة الذاتية التي تدفعه للنضال والمجابهة، وعند هذه الحافة النفسية للاب يدفع المؤلف بشخصيه « الصبي » الى الموقف فيلملم تلك الشحنة النفسية الملتهبة المتوترة ويستجمعها ليتقلص امام تلك الشخصية التي تشق طريقها الى الموقف ، فاذ به حفيدهما ، ارسلته امه اليهما للزيارة ، وتحرك شخصية « الصبي » ذكرى الابن الراحل وتقترب من التساؤل المطروح بشأن عودته ، فاذ به يكشف عن « الانتظار » الذي تعيشه امه ايضا ، انتظار العودة من الجبال بعد بناء السد الواقي ، ان الصبي « الجيل الثالث » والذي بدخوله انقطع الطوفان ليس ملوثا بالطين ، لقد بنى له « الجيل الثاني » سدا واغتسلت المدينة بعد ذلك من الطين ، ان تساؤلنا عن نهاية الطوفان قد اجيب عليه « لقد انقطع الماء » ، « لقد حدث ما كنا يائسين من ان يحدث » .

واضح بالطبع ان المؤلف في صياغته يتجاوز القناع المعطى لنا ، من انها اسرة « أب ـ أم ـ ابن ـ حفيد » وانما هو يستخدم هذه العلاقات ليوحي ويرمز من خلال نسيج فني رقيق ، يملك الشجاعة والوعي اللازمين للموقف الفكري من القضية التي يتعرض لها ، انه يناقش النكسة السوداء التي حطت على ارضنا الطيبة ، الوصمة الكئيبة في صحائف تاريخنا ، كيف حدثت ؟

ان المؤلف يتخذ من درس النكسة محورا هاما تدور حوله الفكرة الاساسية للمسرحية اي انه يجب علينا ان نتحرك لادراك المشكلات التي تجابهنا وليس بالامكان تجاهلها دون التعرض للكارثة وحتى لا يظل خطرها محلقا فوق رءوسنا ، وان على نظامنا السياسي ان يؤمن ويثق باجيال القيادات التي ولدت في رحابه ، اذ أن المسئولية الوطنية ليست وقفا على فئة دون غيرها ، وانه ليست هناك من سلطة دون حدود ، وان الشجاعة ليست اختيالا ولكنها قدرة على بعد النظر والاحتمال .

ان الصياغة الفنية لهذه المسرحية تندرج لاول وهلة تحت نوع المسرحية ذات الفصل الواحد من حيث حجمها وعدد شخصياتها ووحدة موضوعها واطارها المكاني والزمني ، حيث لم يفلت زمامها الى تفريعات غير القيمة الاساسية التي تتناولها ، وحوارها لا يستطرد ويسهب الا ذلك المونولوج الذي يحكي فيه الاب أزمته مع الابن حيث يدفع وفق كم المعلومات التي يطرحها الموقف النفسي الى الامام مطورا اياه ، وفي ذات الوقت كاشفا عن التساؤل الذي يبرز عن علاقة الطوفان بالابن .

ان حجم المسرحية يثير الدهشة ، فهي مركزة للغاية ، ولا تستغرق عرضا أو قراءة الزمن التقليدي للمسرحية ذات الفصل الواحد ، وفي الحقيقة انها ليست بالمثال الفريد لهذا النوع من المسرحيات القصيرة ، فالكاتب الفرنسي سشل دى جلدورد قد كتب عددا من هذا النوع من المسرحيات القصيرة الشديدة التركيز منها « الاسكوريال» و « بي يوتيل» وغيرهما ، حيث يطلق على هذا النوع تسمية « لحظة درامية في فصل واحد » وتقع المسرحية في زمن قصير للغاية لا تستغرق قراءتها العشر دقائق ، كما ان الكاتب الانجليزي شمبسون كتب عددا من المسرحيات القصيرة جدا منها « نفخة واحدة ويحدث كل شيء » و « اده » وغيرهما ، وقد اطلق على هذا النوع من المسرحيات « اسكتشات » ، والحكم النقدي على مثل هذه الانواع من الكتابة المسرحية لا يطلب محاكاة ما هو تقليدي ، وانما المقياس الوحيد الباقي ، هل استطاعت المسرحية ان تمنح عالما خاصا مكتملا ثريا يسمح لمستقبله أو قارئه بالمعايشة والمناقشة دون غموض او الغاز ، دون اية احالة الى محمول غير متواجد في تكوين العمل ذاته ليفسر أو يجيب على ما استعصى على الادراك ، وفي رأيي ان مسرحية « الطوفان » رغم تركيزها الشديد استطاعت ان تجسد فكرتها الاساسية وتسلمها ببساطة ووضوح .

القاهرة — فوزي فهمي

دار الآداب تقدم

في الموسم الجديد القادم

مجموعة هامة من الكتب الجديدة

بين آدم وحواء

للمرحوم الدكتور زكي مبارك

●

الشعر الجديد ... لماذا ؟

تأليف صلاح عبد الصبور

●

صحراء التتر

رواية تأليف دينو بوزاتي

ترجمة خليل الهنداوي وابراهيم المرجاني

●

عن الرجال والبنادق

بقلم غسان كنفاني

اصول الفكر الماركسي

تأليف اوغست كورنو

ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

●

صورة الفنان في شبابه

رواية تأليف جيمس جويس

ترجمة ماهر البطوطي

●

الشوارع العارية

رواية تأليف فاسكو براتوليني

ترجمة ادوار الخراط

●

مختارات من شعر

علي محمود طه

تقديم صلاح عبد الصبور